

الشموع الساطعة

قصة بقلم حميد حميد

ابتسم الضابط ساخراً : جزء آخر احتل من أراضينا !
وقال الصديق القادم من القرب : ولكن لماذا حدث ذلك بهذه
البساطة ؟

قال الضابط بعفوية مرة : لان ذلك قد حدث !!
ملاح مازن جودت كانت كالفراغ تماما . لا لون ، لا رائحة ، لا
طعم . غير أن طريقة امتصاصه للخمر وزفره الدخان ، كانت تفضح
حياده المفقور . وكزوبعة غبار صحراوي أخس قطار التاريخ يجفح
فوق قصبان هياته التي مضت . حياته التي تساوي الصفر .

ويوم غير الابوان حدود الوطن نحو المنافي ، مخلفين وراءهم
الارض والذكريات ورائحة زهر الليمون ، لم يشعر أحد بسيد حجاب
وهو ينمو في بطن أمه . واذا استقروا على أرض أخرى سمع كئيباً
وشاهد . وها هو الآن عمره بعمر الفجيرة ما يني يشاهد ويسمع ، ولا
من أحد يعترف بجسده القائم فوق أرض أخرى .
وتالت الايام ثم الشهور والسنوات ، وأخيراً نما كشوكة منسية
في براري البشر الذين لهم علامة .

– وانت أيها المهاجر الحزين ما علامك ؟ (سأل نفسه فيما بعد).
فوق أراضي الغرباء مسمى ، ولم يكن له مدرسة ، ولا عرف سقف
بيت وما كانت له عشيقه . وفي لياليه كان ينسج لللام والجراح راية.
لكنه كان مفطوراً على الرقابة والنحدي يسكنه لا يعرف عندها
أحد شيئاً . وكان ينفر من الناس الذين عاش بينهم .
– انت يا غريب لماذا هنا ؟ (سألوه بعد أن نما) .
وفي طفولته سرق تفاح البساتين ، وخبز التنور ، وخوض في
وحول المخيمات ، وضرب أطفالاً خلال اللعب . وبصق على الشرطة
السرية التي داهمت الخيام بحثاً عن منشورات .

ومساء يوم نبر أبوه في وجهه : الآن سببت . كفى عبثاً . ابحث
عن عمل تعيش منه .
وفي صباح اليوم التالي سألت أمه عنه فلم يجبه أحد ، ومع
الزمن نسيتنه .

الدروب .. الدروب . بحثاً عن نقطة . عن أرض صلبة . بعد
أن ضاعت الأرض وخيم فوقها غزاة غرباء قدموا من خلف الحار .
ومن مكان إلى آخر ، من قطار إلى قطار ، من مقهى إلى خمار ، من
شارع إلى فندق ، شرطي الحدود يسأله ، وقاطع التذاكر ، والحارس
الليلي ، وصاحب الفندق : هويتك ؟

واذ يهزون رؤوسهم رفضاً ، يندهش : أليس للعربي هوية في
هذا العصر ؟

كانت الخمرة تتنامى وأصوات ضجيج المخمورين تعلو . والشتاء
في الخارج يسكب دمع السماء على الأرض الملطخة .

– في أوروبا كانت التوقعات بأن اسرائيل ستمحى خلال أربع
وعشرين ساعة من على خارطة العالم .
قال القادم الثاني .

ورد الضابط هائلاً : وفوجيء العالم بأن اسرائيل كان بإمكانها ..
– هراء .

وانبرى الآخر : ولكن لماذا توقف القتال ؟

اجاب الضابط بحزم : لان الاستثمار كان انتحاراً .

« الى غيفارا . الشمس التي هتكت ظلام عجزنا جميعاً »
هنا دمشق . هنا القاهرة . هنا بغداد . بلاغ رقم ٧٨ صادر عن
القيادة العامة لقوات العاصفة :

« في يوم ١٠ - ١٩٦٧ هاجمت طائرات العدو ومظليوه
احدى قواعدنا في منطقة طوباس ، ونشبت معركة ضارية دامت خمس
ساعات متواصلة خسر فيها العدو أكثر من مئة قتيل وجريح، واستشهد
من رجالنا القداني « سيد حجاب » بتفجير عبوة من الديناميت فسي
جسمه بعد نفاذ ذخيرته . وقد نتج عن تفجيره مقتل عدد آخر من جنود
الاعداء الذين كانوا يحاولون اسره » .
انتهى البلاغ .

هنا الراوي : مبارك اسمك العظيم ، وجسدك الرحماني الذي
انتشر ، ودمك الذي غار في الأرض ليصعد نسفاً في الشجر ، ولقبرك
الضائع المجد . مبارك ملكونك الفرد أيها الممدد فوق تراب أرضي
المحرقة . طوبى لك ، يا عظيم أمتي التي تموت اليوم لتولد .

وسيد حجاب اسمه الاصلي مازن جودت ، ولد فسي الشرق
الاوسط من ابوين فقيرين في احدى المدن أو القرى التي كانت تنتمي
فيما قبل للفلسطين . عاش في دمشق وعمان وبغداد وبيروت والقاهرة ،
وتنقل عبر جميع المدن . لكنه كان صامتاً في المدن وحزيناً . وفي هذه
المدن كان غريباً كحيوان قطبي .

في خمارات احدى هذه المدن المحكومة لمحتة ذات ليلة .
تلة من الشباب الطالع على عصر مدهش ، كنا . فينا حيوية
الرجال وفينا غضبهم ، وفينا أيضاً صبوات رومانسية ، وربما اشياء
أخرى غافية في الداخل تجهد كيلا تفضح .

انتحينا زاوية منفردة وظلينا خمرًا . أربعة شباب على ما أذكر :
اننان جاء من أوروبا وضابط في الجيش والفقير . لحظات مسن
الصمت ، انتصبت بعدها زجاجة خمر ، وطعام ، وتوجس خفي لسا
سيحكي . وفي الظل تكور سيد حجاب . واذاً أيضاً أنها كانت ليلة
مطرة من ليالي تشرين الاول . الشوارع تلمع انعكاسات الضوء ،
والمارة منكفئون نحو الأرض يخبون الخطى بسرعة ، ورقص المطر يشبه
زهو عروس نرف .

– لماذا يسرع الناس تحت المطر ؟
ولمحت سيد حجاب يفتر افتراة أسى . خيل الي ذلك من خذل
أولى اشعاعات الخمر .

ورفعنا كؤوسنا : نخب ..
فوق جميع الدروب كان البلب ، وداخل البيوت الكثيرة انتشرت
الروائح الأرجوانية ذات الطعم المر . وعبر سهوب النفوس تمدد وجع .
السيارات تجتاز الشوارع هادرة ، ساحبة أضواءها المشعشة
فوق الاسفلت اللامع ، وداخلنا راحت الخمر تشعشع هي الأخرى .

– ما الذي بقي غير الخمر ؟
بعد الرشقات الاولى ، تخلخل التوجس وتسلسل انكفاء خصوصي ،
عزل سيد حجاب والآخرين بستان من الطمأنينة وخيلاء الإدراك .
– كانت هزيمة قاتلة .

قال أحد الاصدقاء القادم من بلاد القرب .
وبالم واعجاب ذاتي رشفت كأسه ، ثم استطرذ : لو نفهم حقيقة
ما حدث هنا في غيبابنا ؟

على سطوح الوجوه ، استحم ألم عام . وفي مملكة السلام
الخمري زغرد الفضب .

بدا المناخ هادئا لكن ما في النفس كان أبعد من ذلك . كذلك
كانت الأيام الستة بعيدة الآن عن هؤلاء المتشحيين بالنضب واللم .

ومنذ أيام فلانل خرج من السجن . ضرب وعذب ، ولعنوا أهله ،
كذلك فلسطينه ومن آواه وأطمعه . ولم يحتج . لم ينسب ببنت شفة .
ونحو مدينة أخرى قذفوا به : ابن الزانية نؤويك وتخرج في مظاهرات
ضدنا !

حول المعركة التي دارت ، احتدم جدل حاد ، وحول دور الشعب
فيها ، والاختفاء القتالة ، وحول الثورة أيضا .

كان مازن جودت يسمع جميع ما يدور الآن من كلمات . وقبل
الآن سمعها في أماكن أخرى . في بيروت سمعها وفي بغداد وفي
القاهرة وفي عمان . النفمات ذاتها والظنين الجحيمي لرجال يعوضون
قصورهم بتفجير الكلمات .

قال أحدهم : هزمتنا لانا لم تكن علميين . هذه معادلة رياضية لا
تقبل الجدل .

وقال آخر : ولم يكن للشعب دور في المعركة .

وزفر الضابط : لم تكن هناك وحدة .

استنرد الاول بعد أن تناول جرعة : كان الغرب ضدنا لانا كنا
ضد أنفسنا . كنا نجتمع ونستم ونهدد بسحق اسرائيل ورميها في
البحر . في الغرب سحق شعب نازية ونحن في نظهم كنا نازيين .

قال الضابط متأففا : ولكن من هم النازيون الآن ؟

مطمط القادم من بلاد الغرب شفيه استهزاء : الآن .. هيه ..
مرحبا الآن . دائما نجيء بعد فوات الوقت . انني أسالك : لو كنا
المتصرين ؟

ناوه الضابط محسورا : ولكن لماذا ندفع نحن ضريبة الاضطهاد
النازي لليهود ؟ الغرب هو الغرب لا يريد أن يفهم .
وضرب بقبضته سطح الطاولة .

كان الصديقان قادمين من أواسط أوروبا ، ليشاركا في معركة
الوطن التي انتهت . من جحيم التهمة كانا هاربين الى أرض التبيكيت
للتعويض عن احساس الائم . وفي الطريق بكيا على الذين ماتوا في
الحرب . في جميع المدن التي عبرها ، رأى مازن جودت أناسا
يهربون وينافسون ، يتهمون ويكفون ، لكنه لم يشاهد احدا يقتل .
وكالحجر ظل صامتا يرى ويسمع .

توقف المطر وزاد صخب الخمارة . والذين تحلقوا حول الخمر ،
رشقوا حجارتهم وراح الاسترخاء يدب في خلاياهم المتعبة بفطريته .
ومن خلال حوادث التاريخ والمشاهدات اليومية الصامتة ، أدرك سيد
حجاب لعبة القناعات الخاصة ، وتوالد النبريرات في النفوس
المطمئة ، العاجزة عن فعل شيء حاسم فيما أسموه : الظروف الموضوعية
السيئة .

في كل مكان كان الدوار . المصروعون يدورون حول أنفسهم وحول
تاريخهم داخل غرف من زجاج وحجر ، محاولين عبثا الخروج من
لفيح النار المقترب : لو تنجو المدن من اللفح !

وإذ توشك المدن أن تحترق ، أجيال الخمارات والشوارع والابنية
النظيفة المرتبة ، تولد قناعات نفسية بأن الحريق بعيد .

منفردا يدرك سيد حجاب أن النار في الداخل . في النفوس
الخامدة ، فلتتمتع طوباس في نفسه ، متألقة كبرق خاطف : هناك
هوبنك !

– ما للسيد صامت لا يحكي؟

أجاب الفقير كسييفا : ما الحل ؟

قليل من الخمر رشفته شفاه السادة ، وفي الاعماق تسوالت
أجوبة رفدت بحور الكلمات . واستمر الحزن والوجع غافيين تحت

رماد الحرائق . واستنرد الفقير : هل فكر أحد منا أن يفعل شيئا ؟
وبعيدا عن الخمارات وحوارات العقم لاحت المدينة الراضحة تحت
أحذية الفزاة منارة تنهوج ، وتحديا . كانت برق الإنقاذ في الليسل
العربي المخيم من محيط الشمس الى خليجها . مزيد من الدم يروي
الارض ، بعيد لها خصوبتها . مزيد منه يرد الحرائق .

– اشربوا اكثر نخب الامان والظروف الموضوعية .

والمدينة الخمرية لما تحترق بعد . وفي سره صاح سيد حجاب :
لو تحترق . لو كل المدن المطمئة في مشارق هذه الارض ومغاربهها
تحترق هي الاخرى . لو ..

من العالم ، ومن حياته ، ومن جيرانه السعداء ، ومن تلك
(اللو) القاصرة سخر سيد حجاب وهو يشعل الفتيل عاديا نحو
الجنود المتحفزين لاصطياده .

مرة أخرى وهو يقترب من مجد الموت انطلق قطار حياته . جامعها
كشرارة . منذ عشرين عاما اقتلع جذره ، وضرب في الافاق تحت كل
سما . كان غريبا كالوحش ، ولم تكن له شمس . اغتصموا أرضه
وصبايا وطنه ، وعلى جميع الدروب التي عبر لاحقته سباط الازدراء .

– للناس وطن وأنا لا وطن لي . للناس شجر وشجري منهوب .
سنوات المطاردة والعسف . ثم الخطوات . اجتاز حدودا .
دخل زنانات وخرج . وكجميع الناس حاول أن يعمل في المسائل
والحقوق وفي الطعام والمقاهي فقيل له : من أنت ؟ عد الى بلادك .

وكما تجوع الذئب ، جاع . غطته سموات لا تعرف الشفقة ،
وعرفته الخمارات والمواخير والارصفة السوداء . وفي كل مكان كانت
التهمة تشيل امام عينيه كعمود من دخان فاحم .

كان فتيا كعاصفة عندما أنكره أهله ، وجرجر خطاه فوق أرصفة
العالم شبيهه كلب جرب مطرود .

وكالعاصفة كان دويه . بعيدا عن مدن الكلمات والحكايا الافيونية
الخائفة ، التي لم تتفجر هي الاخرى .

– ما الحل ؟ انت تسأل .

– أجل ما الحل ؟

– الحل أن نقاتل حتى الموت !

قال الصديق المتحمس جدا .

رد الفقير : رائع . ثمة سلاح . اتلنحق بالمقاومة ؟

هرهر الاخر : هذا هراء . القضية أبعد من ذلك . ماذا يستطيع
الفرد ان يفعل ؟ وأكمل : اترونا من الانفصالات المراهقة ولنفكر جديا
بالشعب والثورة .

وصمت الاول .

واضاء سيد حجاب بجسده ، شمسا ساطعة ، وهوى فدائيا منميزا
وسط الضجيج ودوي التبريرات ، والاقعاء اليومي ، لم يقل شيئا
زمن الحرب . لقد حمى رفاقه المنسحين غب المعركة برشاشه حتى
خلا من الرصاص ، واذ تقدم جنود العدو منه فجأهم كالصاعقة بانفعاله
المراهق وفتوته المحشوة بالديناميت ، فبددهم .

– ماذا يستطيع الفرد الخلاق أن يفعل أكثر من ذلك في زمن
الافتصاب ؟

– نخب الامتيازات ايها السادة الخلاقون جدا .

واترعتنا ما تبقى .

كانت الخمرة قد تمددت بمجدها السروري في خلايا الرأس ،
وراحت أجساد السكارى تتمايل بوهن ، خارجة من بوابة الخمارة الى
الليل المطر .

سرينا في الشوارع كجرذان هرمة ، تحت قمر فضي نبق فجأة
من خلال القيم الراكض عبر سهول الماء . كانت الابنية مبللة راشحة ،

وسكينة حاملة تفانق المدينة . بعيدا جدا عنا كان سيد حجاب الان .
وتسأل احدهم أسفا : أليس حراما ان تحتل هذه المدينة العذبة؟
ران صمت الا من الخطوات النعبي . واشمل احدهم لفاقة تبغ
زفر دخانها بحرقه في الفضاء الاصم .
- لماذا مات سيد حجاب ؟

أكان ينبغي أن يضرب كل بيت ، وتفقد كل أسرة انسانا ، لتنفجر
المدن الرخية التي تبدأ السكر والنسيان منذ القروب ؟ من عاله لم
يكن يملك شيئا سوى حياته التي لا تساويه ولا تساوي عصره النذل .
كان مدانا لانه عربي وكل ماضيه كان كهذا القبار الموحل تحست مطر
الخريف . سمع انه من خير امة اخرجت للناس ، وطاولت سماءه اصدااء
الثورات لكنه كان يسمع شنيتمته في الصباحات والليالي ، وفي جميع
الطرق والساحات : أيها الفلسطيني القدر !

وهاهي الارض المضروبة بحوافر الخنا ، تطل من عيون الذين
مانوا في الضحى وما كفنوا ، تطل من الدروب المحاصرة ومؤق الماضي
الملوث ، وافواج الهائمين السكارى بالخمر وحروب الكلمات .
- أليس حراما ان تحتل هذه المدينة المجللة بالخضرة والخمر-
والطر المهور ؟

ذلك كان ختام الجهاد الاكبر لنفوس نبوح في الامسيات باشجانها
للاشياء ، تواسي بها جراحها الخفية . وخارج المدينة كانت افسواه
اخرى تنوح مشرعة جهادها واستجداءها . تطلب النجدة وفرق الاطفاء
لاخماد الحريق الذي اندلع ، وسطح جحيما فوق ارض العرب ، عندما
كانوا يفتون .

- فلسطيني انت ولست عربيا يا مازن جودت .

ومن بعيد كانت تدوي اصدااء المقاومة ، تطل هي الاخرى محمولة
داخل توابيت الحبر الملوخ بالافيون ، واذا نشم الروائح تسري الطمأنينة
والسكينة فينا . انهم يقاتلون ويقتلون عنا .

ما زلنا في شوارع عامرة بالنيون والصمت نعوم ونترنج . فوق
اكياس رمل غنيقة منزوعة الاحشاء ، عبرنا . احنا ما يشبه الخنادق
التي حفر ربيها ثم اهملت وتركت كحياتنا الناقصة ، منقوعة تحت
الشمس والنيون . قرأنا داخل لوحات مضاءة بالنور الساطع :

((باعجاب نحبي نضال المقاومة في الارض المحتلة)) .

وتذكر الذين مزق احشاءهم العطش ، وسلخ جلدتهم حريق الشمس
والقذائف . الذين تاهوا فوق سيناء موسى وما وصلوا . الخونة ايضا
تذكرهم ، وعبيد الامتيازات ، ثم الجبناء . هؤلاء لماذا لم يقتلوا ؟ اكان
ينبغي لوطن النسيان والرسوخ وعلم الكلام ان يغطي بالدم من محيطه
الى خليجه ليفيق من كهفته الدهرية ؟

- لو كل رجل يحسني دم ابنه . لو كل امرأة تاكل ندي ابنتها

المقطوع . لو السماء تمطر دما وقتلي !!
واذ قال له القائد : « انس اسمك القديم . منذ الان انت « سيد
حجاب » . اتعلم معنى كلمة فدائي ؟ » لم يعرف اكثر من انه سيقتل
او يقتل . وصمت متسانلا .

قال القائد للفدائي الجديد : الفدائي قتيل حي . زمنه قصير
ويحيا مع الصدفة في أي منعطف . في دمه يحمل المستقبل لا ام له
ولا ابن ولا زوجة . حيوان بري ، لحافه كل سماء ، وارضه جميع
الاراضي الموبوءة بالعبرانيين القتلة .

يبعث عنهم بحذر وتصميم ، ويبداه رشاش وقتيلة . دمسه مباح
وقلبه من حجر لا يلين . الفدائي يلبس حجاب لا يعرف الفرح ولا
مسررات الارض الا وهو يضرب من اجل جميع العجزة والمضطهدين على
هذه الارض .

خذ هذا الرشاش وهذه العجوات والقنابسل . اذا وقعت وبحت
تموت . فيما بعد تايتك الاوامر .

واذ تسلمها لم ينيس .

وفيما بعد اصدر سيد حجاب لنفسه اوامر ادارية . صدع لها ،
فسقطت في قاع حياته وشوشات المقاهي والخمارات وثرثرات اوصياء
التاريخ . تخطى باوامره الفردية التي خرجت من رأسه لتبذر كالحب
في ارض القتل ، حياة كانت خميسة ، حياة ملايين تبرر وتحلم تحت
شموس من دخان ومذلة . ومضى مخلفا وراءه مدن الطاعون والامتياز .

مرنا بحارس كان يشخر داخل مغفره الخشبي . وعبرتنا سيارة
يقهقه فيها رجل وامرأة . اجتازنا موكب مراهقين تقياتهم احشاء اقبية
ناعسة ، راوحا يرقصون فوق الارصفة وللريح يرمون ضحكات اثوية
ساخرة .

- ساوى اللقيط نفسه الان .

بينما تابع الابناء الشرعيون سيرهم مخدرين نحو بيوت آبائهم ،
تحت سماء راحت تصحو . بعد لحظات سينامون في ممالك مسراتهم
الموجة بالفرح والنساء واحلام التانيب . يرون الطير الابابيل تسقط
حجارتها على ابناء موسى اللقطاء ، فيفنون .

طفل في لون الارض والشقائق ولون نفسه ، ينام الان خارج ممالك
الفرح والاحلام في هدوء على الارض التي استحقها بعد ان عمدتها بدمه،
وفوق نثار جسده تمدد غصن خرنوب ، فطفه احد رفاقه من شجرة
فلسطينية مجاورة .

الظلال ، والماء ثم الدم الذين مانوا ، للذين تاهوا فوق الصحارى
ولم يصلوا .

حيدر حيدر

دمشق

صدر حديثا

دراسات في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

منشورات دار الآداب

الثن ٢٥. ق. ل